# جبران خليل جبران متصوفا
# Gibran Khalil Gibran Mystic

بن عمر سهيلة أستاذ محاضر – أ -
قسم اللغة والأدب العربي -جامعة الشهيد حمّة لخضر-الوادي(الجزائر)
Souhilasouhila49@yahoo.com

تاريخ الإيداع: 2019/06/03 تاريخ القبول: 2019/07/11

**ملخص:**

الأدب هو تعبير الإنسان عن نفسه ، فالأدب بهذا المعنى رسولي ، يحاول من خلاله الأديب تقديم رؤى وتصورات حول الحياة وتحديد موقف الإنسان من ذاته ، ومن هذه الحياة المادية المطلقة التي يعيش فيها ، ويغيب عنها البعد الروحاني والعاطفي ... هذه الإشكالية أو الأزمة التي يعيشها الإنسان المعاصر ، حاول الأدب تناولها والبحث عن حلول لها من خلال أجناسه المختلفة ( الشعر ، الرواية ، القصة ، المسرح ... ) ، وإن عمَّ هذا التناول فإنه يبقى لجماعة الرابطة القلمية خصوصية التناول والطرح لهذه الأزمة التي أخذت منحى المشروع الفكري والأدبي تنجلي من مختلف أعمالهم الفنية التي تميزت برؤياهم للإنسان والحياة والكون .

هذا التوجه أكثر ما نلاحظه في كتابات جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة ، التي تميزت ببعدها الفكري والثقافي وطابعها الديني ومنهجها الذي ضمَّ العديد من القضايا ( قضية وحدة الوجود ، قضية الحياة ، قضية التصوف ...) ، هذا البعد الروحي في كتاباتهم دفعنا إلى تناولها بالدراسة والتحليل لالتماس أبعادها الصوفية وملامحها الروحانية والبحث عن علاقة الأدب بمجال التصوف والصوفية ، وما الرسالة التي حاولا تجسيدها جبران في الأدب المهجري ؟ وما علاقة فعل الهجرة والاغتراب بعالم الصوفية وتجربة التصوف ؟ وكيف نسج أدب الرابطة القلمية هذه المعالم الصوفية لغويا وفنياً وجماليا في أدبهم ؟ .

ما الرسالة التي قدمها جبران للقارئ في التضمين الروحي والصوفي لأدبهم وانفتاحه على التصوف في مصادره المشرقية حتى الغربية ؟

**الكلمات المفتاحية:** وحدة الوجود ؛ التجلي ؛ الصوفية ؛ المحبة ؛ النور ؛ الطبيعة ؛ التقمص.

***Abstract :***

Literature is man's expression of himself. Literature in this sense is apostolic, through which the writer tries to present visions and perceptions about Life and the determination of man's position on himself, and from this absolute material life in which he lives, absent from it the spiritual and emotional dimension ... this The problematic or crisis that contemporary man lives, which literature tried to address and search for solutions to it through his different genders (poetry The novel, the story, the theater ...), and if this approach is generalized, then the Pen League will have a specificity of dealing with and addressing this crisis that The approach of the intellectual and literary project was evident from their various artistic works that were characterized by their visions of man, life and the universe.

This trend is most noticeable in the writings of Gibran Khalil Gibran and Mikhail Naima, which were distinguished by their intellectual and cultural dimension and character The religious approach and its approach which included many issues (the issue of pantheism, the issue of life, the issue of mysticism ...), this dimension The spiritual in their writings prompted us to study and analyze it in order to seek its mystical dimensions and its spiritual features, and to search for the relationship of literature In the field of Sufism and Sufism, and what is the message that Gibran tried to embody in migratory literature? What is the relationship of the act of immigration and alienation with a world? Sufism and the experience of mysticism? How did the literature of the Pen League weave these mystical features linguistically, artistically and aesthetically into their literature? . .

What is the message that Gibran presented to the reader regarding the spiritual and mystical embedding of their literature and his openness to Sufism in its Eastern even Western sources?

***Key words:*** *Diacritical concordance – Structural mark – Parsing mark – Mark deletion– Tracking.*

**مقدمة:**

يقول **ميخائيل نعيمه في كتاب البيادر** « الفن الذي إذا ما تحسستموه أحسستم كأنكم تنعتقون من الحس وإذا ما حاولتم تحديده قادكم إلى حيث لا حدود فر أيتموكم شاملين مثلما الله شامل " [1]

.

هذا المذهب في رؤية الفن ورسالته ساهم بشكل كبير في فتح آفاق أرحبْ وأشمل تميز به أدب الرابطة القلمية إلى جانب انفتاحهم على البيئة المهجرية التي ساهمت في ربط ابداعاتهم بقضايا وانشغالات مختلفة عن ما كان الأدب العربي منغمساً فيه من أغراض فنية عفَّا عنها الزمن وزخارف وحواشي لا تقترب من الواقع أو تصوير أحداثه والانشغال بجوهر الذات الفردية أو الجمعية.

وكما قُدر للأدب في العصر الحديث أن يغترب ليتجدد على غرار اغترابه في الأندلس ... استطاع أدب الرابطة القلمية أن ينقل الأدب العربي إلى ضفاف أخرى أكثر إبداعاً وجمالاً ، وعُمقاً ...

وإن كنَّا نلمس تأثير شعر الرابطة القلمية في إلهام المشهد الأدبي العربي على غرار شعر ( إيليا أبو ماضي ، نسيب عريضة ، رشيد أيوب ، ندره حداد ، ميخائيل نعيمه ، جبران خليل جبران ... ) فإن لهذين الأخيرين - ميخائيل نعيمه ، جبران خليل جبران - الكثير من النصوص النثرية التي لامست ذات المتلقي وتقاسمت معه آلامه وآماله تعلوها نفحات إنسانية وروحانية ودينية وجمالية وصوفية وصلت إلى جميع القراء في العالم بعد تخطي حاجز الترجمة ، لما تتميز به من بُعد إنساني يمس جميع القراء في أنحاء العالم. !

ويعود لجبران خليل جبران أكثر من كتاب ألفه في هذا الاتجاه نذكر منها :

- كتاب النبي أكثر الكتب مبيعاً في العالم بعد كتب شكسبير و لاوزي 1923 م.
- مناجاة وأرواح 1997م.
- المجنون.
- حديقة النبي 2009م
- آلهة الأرض 2003م.
- يسوع ابن الإنسان 1928م
- التائه 1933م.
- البدائع والطرائف.

كما صدر لميخائيل نعيمه العديد من الكتب النثرية التي تتعلق بهذا المسار وتكريسه ، منها :

- النور والديجور 1950 م
- البيادر 2012م.
- زاد المعاد 2009م
- مرداد 1952م.

وإن سأل سائل لماذا هذا التوجه في الكتابة ، وغزارة ما كُتب حول هذا المشروع الروحي والخطاب الصوفي ،تعود الأسباب والدوافع إلى مراحل ووقائع عاشها الرجلان وتأثرا بها ، نُحصرها فيما يلي :

- معايشة الحضارة المادية المعاصرة وما ولدته من معاناة وجودية عميقة ومعقدة على المستوى الذاتي.
- البحث عن ملاذ روحاني وخلاص معنوي يُؤنس وحشتهم ووحدتهم في الغربة.
- المنهج الصوفي رؤية للخلاص من أزماتهم الذاتية وأزماتهم في التعامل مع الاختلاف المحيط بهم في الحضارة الغربية.

- الانتماء إلى التيار الرومانسي الذي تضمن النظرة إلى الذات وتمجيد العاطفة والشعور بالغربة والاعتماد على القلب والإلهام في المعرفة والابداع ، وعشق الطبيعة وتشابه المحسوس بـ اللامحسوس ، والتعبير بلغة انزياحية رمزية ، ومحاولة الوصول إلى عالم أكثر كمالاً من عالم الواقع ، حتى لكأن الشعر ، - وهو كذلك – معاناة صوفية.

- تأثر أدباء الرابطة القلمية وعلى رأسهم (جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة ) بتراث الحضارة الشرقية والفكر الإسلامي ، من خلال اقتناعهم بوحدة الوجود ، وتأييد القلب كأداة للمعرفة والخلود بدلاً من العقل . هذه النقاط سنتوسع فيها لاحقاً ضمن هذه الدراسة .

مفهوم التصوف من المفاهيم الرئيسة في عالم الأدب والفكر ، وأضحى من أهم القضايا في الأدب الحديث والمعاصر في ظل التنوعات والنزعات التي شهدها الخطاب الأدبي المعاصر.

وعن مفهوم التصوف هو من المفاهيم المتشعبة الدالة على عدة معاني ودلالات ، جاءت من اشتقاق كلمة التصوف وهي خمسة نذكرها [2] :

- التصوف من صوف القفا للينها ، فالصوفي هين لين.
- أنه من الصفة إذ جملته اتصاف بالمحامد وترك الأوصاف المذمومة.
- أنه من الصفاء وصحح هذا القول حتى قال أبو الفتح البستي رحمه الله.

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا جهلاً وظنوه مشتقاً من الصوف.

- وست أنحل هذا الاسم غير فتي صافي فصوفي حتى سمي الصوفي.

إن التصوف لفظ منقول من الصفة لأن صاحبه تابع لأهلها فيما أنيت الله تعالى بهم من الوصف حيث قال : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ سورة الكهف الآية 28 .

أما المفهوم الاصطلاحي التصوف هو بذل المجهود ، والإنس بالمعبود ، وقيل أيضا : حفظ حواسك من مراعاة آنذاك وقيل كذلك : الإعراض عن الاعتراض ، وقيل : هو صفاء المعاملة مع الله تعالى ، وأصله التفرغ عن الدنيا ، وقيل : الصبر تحت الأمر والنهي ، وقيل : خدمة التصرف ، وترك التكلف ، واستعمال التطرف ، وقيل : الأخذ بالحقائق والكلام بالدقائق ، والإياس مما في أيدي الخلائق . [3] ، وهو علم " يعرف به كيفية ترقى أهل الكمال من النوع الإنساني في مدارج سعادتهم. " [4] .

وفق ما سبق ، وجد الدارسون صعوبة في تحديد مفهوم التصوف ، وسبب ذلك أن الصوفيين استعصى عليهم إيجاد وصف دقيق لتجاربهم الروحية ، كما أن كثرة التعريفات التي يصنعها الشيوخ حسب رؤيتهم ، ويقول أبو العلا عفيفي : " وقد كنا نطمع بعد دراسة خمسة وستين تعريفاً للتصوف

أن نجد معنى عاماً مشتركاً ينتظمها جميعاً ، ولكنا لم نظفر بهذا المعنى على وجه التحديد [5] ، وبشكل عام يرمي مفهوم التصوف إلى حقيقة واحدة هي صدق التوجه إلى الله.

أما عن تاريخ التصوف ، يُشير الإمام الحافظ السيد محمد صديق الغماري رحمه الله ، أن الوحي السماوي في جملة ما أسس من الدين المحمدي إذ هي مقام الإحسان الذي هو أحد أركان الدين الثلاثة التي جعلها النبي صلى الله عليه وسلم بعد ما بينها واحداً واحداً ديناً بقوله : " هذا جبريل عليه السلام أتاكم يعلمكم دينكم " [6]

وقد أشار العلامة ابن خلدون إلى نشأة التصوف في المقدمة ، فقال : " وهذا العلم – يعني التصوف – من العلوم الشرعية الحادثة في الملة ، أصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عن سلف الأمة وكبارها من الصحابة و التابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية ، وأصلها العكوف على العبادة ، والانقطاع إلى الله تعالى ، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد في ما يُقبل عليه الجمهور لذة ومال وجاه ، والانفراد على الخلق ، والخلوة للعبادة ، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا ، واختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية. " [7].

وعن أسباب ظهور التصوف والصوفية في التراث الاسلامي ، يُوضح د/ أحمد علوش هو أن بعد دخول أمم شتى وأجناس عديدة في حظيرة الاسلام واتساع دائرة العلوم وانقسامها وتوزعها بين أرباب الاختصاص حيث قام كل فريق بتدوين العلم الذي يُجيدهُ أكثر من غيره ، فنشأت عدة علوم ، مما أدى إلى تضاءل التأثير الروحي شيئاً فشيئاً ، أخذ الناس يتناسون ضرورة الإقبال على الله بالعبودية ، مما أدى بأرباب الزهد إلى أن يعملوا هم من ناحيتهم إلى تدوين علم التصوف و إثبات شرفه وجلاله وفضله على سائر العلوم ، وذلك لاستكمال حاجيات الدين في جميع نواحي النشاط ، مما أدى إلى حصول التعاون على تمهيد أسباب البر والتقوى ، وبنى أئمة الصوفية الأولون ، أصول طريقتهم على ما شبّ في تاريخ الاسلام. "[8].

بحسب ذلك ارتبط ظهور التصوف والصوفية بالدين الاسلامي وبآثار السلوك المحمدي ، لتعمق هذا الاتجاه بشكل أكبر مع ظهور التيار الفلسفي الذي ارتبط بالفكر الصوفي ، الفلسفة الاسلامية وعلاقتها بالتصوف خلال القرن الرابع للهجرة من خلال أعلامه الأوائل الحسين بن منصور الحلاج المتوفى سنة 309هـ ، ومحي الدين ابن عربي ، وشهاب الدين عمر السهروردي أولئك كانت لهم وجهات نظر فلسفية خاصة في طبيعة الوجود والإنسان والعالم ، وعبر مؤلفات عديدة التي خاضت في مجال التصوف الفلسفي مثل الإحياء والمشكاة للغزالي ، والفصوص والفتوحات لابن عربي ، وحكمة الإشراق للسهرورودي ، والإنسان الكامل لعبد الكريم الجبلي ، كما ساهم علم الكلام في بروز هذا التيار ونضوجه إلى جانب تأثر هذا التيار بالفلسفة الهندية وأفكارها البوذية التي تعمل على مجاهدة النفس ورياضتها وتعذيب البدن.

وقد عرف المشرق العربي هذه المفاهيم وتأثر بها من خلال الاحتكاك بالثقافات الأخرى كالحضارة الشرقية والديانة المسيحية والاسلامية.

إن التصوف ظاهرة إنسانية وفكرية عامة " ليست محدودة بدين ، أو حدود مادية زمانية أو مكانية ، ومن ثم يمكن القول : بأن التجربة الصوفية قد تنشأ بعيداً عن الدين " [9] . هذه الظاهرة ارتبطت بشكل كبير بالأدب الحديث والمعاصر ، فلا أحد

" ينكر أن التيار الصوفي يشكل مكوناً أساسياً من مكونات الفكر العربي المعاصر ... وبخاصة أن النتاجات الصوفية المختلفة قد شكلت مادة ثرية خصبة لعديد النتاجات الأدبية الحديثة والمعاصرة .. وقادت بالنتيجة إلى أن تصبح المكونات الصوفية جزءاً مهما في لحمة النص الأدبي الحديث ، وقد ترقى في بعض الأعمال إلى المكون الأساس الذي يتماهى معه المبدع ، يوظفه بكيفية ما ." [10]

بحسب ذلك، إن التصوف والأدب بعامة ، والشعر بخاصة بينهما علاقة وطيدة تتمثل في أن كل من التصوف والشعر يُحيل على الجانب العاطفي والوجداني وما يتضمنه من غموض ، وتمرد ، والرغبة في التحرر ، وقد حاول كل من جبران خليل وجبران و ميخائيل نعيمه الالتفاف حول التجربة الصوفية في التعبير عن تجربتهما الأدبية للوصول إلى الحقيقة وجوهر الأشياء عبر المعرفة والرفض والخيال والإلهام ، واللغة والرمز من خلال كتاباتهم الشعرية والنثرية على حد سواء .

وسنركز من خلال هذه الورقة البحثية على نصوص جبران النثرية التي تضمنت البعد الصوفي باعتباره تجربة فردانية بحتة تجلت في أغلب كتاباتهم ، إذ تناولت الرمز الصوفي والخيال والمقامات والأحوال ، والمناقب ، والمعجم الصوفي والمدارات التصويرية الكلية ( كالحب الالهي ) ، هذه السمات الصوفية ساهمت في تشعب الكتابة النثرية الجبرانية لتشتمل الكتابة على فضاءات متشعبة ومتعددة مثل الكتابة التي تعتمد على الرؤيا، التي تميزت بسمات فنية وجمالية وتصويرية خاصة ، من خلال استثمار سمة الخيال والرمز ، والسؤال المهم هنا ... كيف مارس جبران الخطاب الصوفي في كتاباتهم ؟

إن المطلع على كتابات جبران النثرية يجد فيها ميلاً شديداً للغوص في البعد الصوفي ، حيث وجد فيها مرتعاً خصباً لا أول له ولا آخر من خلال توظيف المجازات والقدرة على تصوير ما هو حاضر بما يمكن أن يحضر فيما بعد ، أي ما يمكن أن نسميه بـ

( الاستشفاف ) ، والكتابة عن ذات يمتزج فيها ما يُعرف وما لا يُعرف والاطلاع على الخفي في الوجود والغائب المجهول منه ، والاحتفاء بالحب والجمال الذي هو أساس الكون ، والنفاذ عبر اللغة إلى ما وراء حدود العقل وحدود المادة ، والانتماء إلى الكون انتماءً عضويا نورانيا ... كتابات صادرة عن الحرية والحلم والرؤيا.

إن المطلع على أدب جبران يتساءل المرء حول ما إذا كان متصوفا أو أنه مؤمن فقط بالنزعات الصوفية مثل التقمص ، هذا المبدأ الصوفي القائم على انتقال الروح من جسد إلى آخر .

والحقيقة أن جبران لم يكن صوفياً على ما كان عليه ابن عربي والحلاج ، بل لديه ميول إلى الصوفية تمثل في " الإيمان بسلامة المعرفة القبلية وعلم الاجتهاد العقلي ، والاستكشاف الباطن بالصدود عن المظاهر الخارجية العارضة والاهتمام ببواطن الأشياء وبباطن الذات ، وهاجس الشوق والحنين المؤدي إلى اليقظة الروحية ، والسعي إلى الكمال الشخصي بتجاوز الواقع الوضيع ، ثم اعتماد الحب أو المحبة كصفة خلقية أساسية للتكامل. " [11]

وجبران بدوره يحاول في أغلب كتاباته الأدبية تناول هذه التوجهات والإشارة إليها مثل تناوله المعرفة الحدسية باعتبارها أداة لإدراك الحقائق ، ونتبين ذلك في قصة ' إرم ذات العماد ' بقوله : " أفتظن أنك تستطيع إدراك الجواهر باستفسارك عن الأعراض هي لا ولن تُصغي إلى ما تقوله لا ، ولا تنظر إلى ما تفعله بل سوف تسمع بأذن أذنها ما لا تقوله وترى بعين عينها ما لا تفعله " [12] ، ويُشير إلى أهمية ذلك في استبطان أمور الخلائق والحياة ، وذلك في المقال المعنون بـ ' القشور واللباب ' ، حيث أشار إلى أن الناس في مجملهم متورطون بالسطحيات وغافلون عن رؤية أسرار الروح والجوهر الكامن فيها " فليست الحياة بظواهرها بل بجواهرها وعلينا ألا نهتم بما يُظهره الإنسان بل بما يُخبئه في نفسه. " [13]

وأكدَّ على ذلك في قصة ' البنفسجة الطموح ' في أن الهدف من حياة الإنسان هو السعي لاكتشاف ما وراء الوجود [14] ، وقد تضمنت هذه القصة إلى جانب العديد من الكتابات الأخرى توظيفاً مباشراً لمصطلحات المعجم الصوفي ، مثل : الجوع الروحي ، الكمال ، الشوق ، الذات المعنوية ، النور الإلهي ، الحنين والسكينة والرؤيا.

هذا التوجه الذي عرفته كتابات جبران ، جعلت الدارسين يحاولون فهم التصور الحقيقي للتصوف عند جبران ، وقد استخلصنا من ذلك ثلاث نقاط أو تيارات أساسية [15] :

- التصوف التحرري الذي يدعو إلى نبذ الحياة الكلاسيكية وهدمها ، ومحاولة بناء عالم مثالي.
- التصوف الايجابي التفاؤلي الذي يسمو بالروح ولا يقهر الجسد ويحاول الحفاظ عليه لكسب المعرفة الإلهية التي ستحل فيه ، وعدم احتقار الملذات المادية ( الطبيعية ) ، ويتجسد هذا التيار في اختيار أبطاله الذين يتقاسمهم حيز الروح والجسد ، مثل بطل قصة ' العاصفة ' يوسف الفخري بقدر التزامه بالصلاة والتأمل فهو شارب للخمر ومستمتع بملذات الحياة الأخرى.
- التصوف الانتخابي أو الانتقائي ، يعمد إلى اختيار أفكار الصوفيين ما يتلاءم مع المبادئ الانسانية.

ويعتبر مفهوم التقمص أو التناسخ أو التجسد من أكثر المفاهيم عند جبران ولعاً بها لرفضه الغناء وايمانه بالخلود والمثالية فآمن بمفهوم التقمص في بيئته الدرزية * ، إذ رأى أن الحياة لا تنتهي بعمر واحد ولا بأعمار ، لأن الإنسان ينشد الكمال ويبحث عن الله الذي لا يمكن أن يجده في عشرين سنة أو في مائة أو في ألف [16] .

**1- التصوف والطبيعة في أدب جبران :**

تعتبر الطبيعة بالنسبة لجبران خليل جبران الملاذ الأول والأخير الذي ينعم فيه بالحب والأمان ، وقد كان للطبيعة أثر كبير في تكوين شخصية جبران الطفل ثم الرجل والأديب ، ولاريب في ذلك إذ كان جبران يعيش في ربوع لبنان وفي أحضان طبيعتها الخلابة قبل الهجرة إلى أمريكا ، فقد ترعرع صبيا في قرية ' بشرّى ' التي تميزت بمنظرها الخلاب وطبيعتها العذراء التي لم تدنسها الأيادي السوداء ، لذلك لم يستطع أن يجد لها مثيل حتى بعد هجرته وانتقاله إلى أكثر المدن جمالا.

وبحسب ذلك تأمل جبران في الطبيعة واستلهمها في أدبه واعتبرها أهم الركائز التي يعتمد عليها في بناء تجربته الفنية والأدبية ، فاشتغل على الطبيعة باعتبارها رمزا وملهمة يُعبر من خلالها عن عواطفه ومشاعره ومواقفه من الحياة ، لذلك اعتبر الطبيعة بكافة عناصرها وتضاريسها المختلفة وحيواناتها ونباتاتها كائنا حيا يتجاذب معه أطراف الحديث ويُفضي له بأسراره وآلامه ، وينسج من خلاله حكايات وروايات عن الحب والجمال مجالها الخيال ومسرحها الطبيعة ، والطبيعة في أدب جبران لم تكن مجرد رمز بل ملجأ للإنسان المعاصر للهروب من صراعات الحياة ، ومكانا يبعث على الشعور بالأمل والفرح.

وفق ذلك ، اعتبر جبران رؤيته للطبيعة ليست مجرد رؤية ذاتية بل هي رؤية صنعت مذهب فلسفي وصوفي خاص بجبران ابتدعه من ذاته وطبعه وفكره وتعاملاته اليومية ، هذا الانسجام المتكامل بين جبران والطبيعة أو الانصهار بها نسج لنا قيم جديدة للطبيعة تتأثر بجبران والعكس صحيح ، وقد نلمس الالتحام بين الطبيعة وجبران وفق رؤيته الصوفية للأشياء من خلال أكثر الأعمال الأدبية التي تعمقت في هذه العلاقة تمثلت في قصيدته ' المواكب ' 1918 م القصيدة التي بلغت أبياتها 203 بيت اشتغلت على الغاب وما فيه واعتبره جنته الوحيدة على هذه الأرض ، ومن ذلك يقول [17]:

هل اتخذت الغابَ مثلي منزلا دون القصور
وتتبعت السواقي وتسلقت الصخور
هل جلست العصر مثلي بين جفنات العنب

والعناقيد تدلت كثريات الذهب
هل فرشت العشب ليلاً؟ وتلحفت الفضاء
زاهداً فيما سيأتي ناسياً فيما مضى

ضمن هذا الفضاء المكاني الجمالي يحاول جبران توظيف رؤيته الصوفية للطبيعة واعتبار الغاب خلوته الجميلة التي ينسى فيها أسى عالم المدينة ،فكل ما في الغاب متاح للتأمل والفرح والشعور بالحرية والتحرر من القيود والنفاق الذي يسود عالم الحضارة ، تكشفه الغاب التي تتوج الحب الحقيقي ، يقول [18]:

تعالي، إن ربَّ الحبَ يدعونا إلى الغابِ
لكي يمزجنا كالماء كالخمرة في كاسِ
ويغدو النورُ جلبابكِ في الغاب وجلبابي
فكم نصغي إلى الناسِ ونعصي خالقَ الناسِ

وكما يبحث المتصوف عن أرض الميعاد ويتشوق لرؤية المعبود والتنعم بلقائه ، يدفعنا جبران في هذه القصيدة إلى الشعور بأن الغاب هو أرض الميعاد وعلى أعتابها يخلع المتصوف شوقه وحنينه بعد سفر شاق وطويل للوصول إلى هذا الأرض التي لا تقع في شرق أو غرب بل في عالم متعال عن العاديات ، وهو ما أثاره جبران في هذه القصيدة وفي كتابه النبي وغيرها من الآثار التي عكست الصراع الذي عاشه جبران طيلة حياته في البحث عن عالم آخر مختلف عن العالم الذي يعيش فيه ويعاني منه ، وهذا ما دفع جبران إلى خوض العديد من التجارب الصوفية التي تجعله أقرب إلى هذا الحلم والانصهار فيه مثل التقمص .

2- **ملامح التقمص في أدب جبران :**

يُعرب جبران في رسائله لـ ماري هاسكل أنه يشعر بأنه عاش حيوات متعددة في أماكن متفرقة ، في قوله : " عشت مرتين في سوريا ، لكنما لفترات قصيرة ، ومرة في ايطاليا إلى سن الخامسة والعشرين ، وفي اليونان حتى الثانية والعشرين ، وفي مصر حتى الشيخوخة ، وعدة مرات أو سبعاً ربما في بلاد الكلدان ، وواحدة في كل من الهند وفارس " [19] ، كما يعتقد أنه ولد في مومباي الهند حسب نبذة الشاعر نسيب عريضة[20].

يُؤمن جبران أن حياة الإنسان لا تبدأ من الرحم وتنتهي في اللحد ، بل هي حياة أزلية ، فيقول : " فأنا كنت منذ الأزل ، وها أنا ذا ، وسأكون إلى آخر الدهر ، وليس لكياني انقضاء ." [21] ، فلا وجود لهذه

الروح في عالم الجحيم أو النعيم بل هي عبارة عن كيان سابح في الملكوت ، اللانهاية ثم تعود إلى جسد جديد لأن الحياة لا تنتهي بديمومة العمر الواحد ، وعلى ضوء ذلك يعتبر جبران الحياة مجرد " تصفية حسابات ، نموت فنترك خلفنا ديونا لنا وديونا علينا ، من خير ومن شر ، من حب ومن بغض ، من صداقة ومن عداوة ، فنعود لنستوفي ونوفي ، وسنظل نستوفي ونوفي إلى أن لا يبقى لنا من رصيد حساب إلى الله. " [22]

يبرز هذا التمثيل في قصة ' رماد الأجيال والنار الخالدة ' في تقمص كل من الكاهن البعلبكي وفتاته سنة 106 قبل الميلاد ، جسد الراعي علي الحسيني وفتاته سنة 1890م ، بعد أن اختطفها الموت فغابا قرونا وعادا يتقمصان هاذين الجسدين ، فيقول جبران على لسان الفتاة : " فقد أعادت عشتروت روحينا إلى هذه الحياة ، كي لا نحرم ملذات الحب ، ومجد الشبيبة. " [23]

وضمن كتاب ' الأرواح المتمردة ' تُجسد قصة ' مضجع العروس ' أن الحب يستطيع أن يعيش في أجساد أخرى بعد موت البطلين ، فيقول جبران على لسان البطلة : " قد بحثنا فلم نجد مضجعا يليق بعناقنا في هذا العالم الذي جعلتموه ضيقا بتقاليدكم ومُظلما بجهالتكم وفاسدا بلهاثكم ، ففضلن الذهاب إلى ما وراء الغيوم. " [24]

وعلى مدارج الموت يرى جبران أن فيه لذة الارتقاء إلى السماوي والانتقال إلى زمن الروح الكلي الذي يتجدد أبد الدهر ، ويقول : " تتبخر مياه البحر وتتصاعد ثم تجتمع وتصير غيمة وتسير فوق التلال والأودية حتى إذا ما لاقت نسيمات لطيفة تساقطت باكية نحو الحقول وانضمت إلى الجداول ورجعت إلى البحر موطنها ( .... ) كذا النفس تنفصل عن الروح العام وتسير في عالم المادة وتمر كغيمة ( ... ) إلى بحر المحبة والجمال ، وإلى الله ".[25]

ويُعدُّ كتاب ' السابق ' من أكثر كتابات جبران تعمقاً في موضوع التقمص ويقول في فاتحة الكتاب " أنت سابق نفسك " حيث أشار إلى أن الروح سابقة عن الجسد وتُغيره من فترة لأخرى [26] .

- **استنتاجات :**

1- أبرزت كتابات جبران النثرية شغفه بالتصوف كفكر وملامح لا بالصوفية كطريقة وسلوك وولاء ، خاصة التصوف عند الدروز ، إذ آمن بالتصوف في مسالكه الكبرى ( الشطح ، التقمص ، المعرفة الإلهية ، زمن الروح الكلي ، الاستشفاف ...) وأولى لها أهمية كبرى في كتاباته النثرية التي أبرزت فلسفته الخاصة في هذا السياق.

2- توضح من خلال نصوص جبران أن التصوف لديه قائم على ثلاث أشكال :

- التصوف التحرري الذي يدعو إلى نبذ الحياة الكلاسيكية وهدمها ، ومحاولة بناء عالم مثالي.

• التصوف الايجابي التفاؤلي الذي يسمو بالروح ولا يقهر الجسد ويحاول الحفاظ عليه لكسب المعرفة الإلهية التي ستحل فيه ،وعدم احتقار الملذات المادية (الطبيعية ) ، ويتجسد هذا التيار في اختيار أبطاله الذين يتقاسمهم حيز الروح والجسد ، مثل بطل قصة ' العاصفة ' يوسف الفخري بقدر التزامه بالصلاة والتأمل فهو شارب للخمر ومستمتع بملذات الحياة الأخرى.

• التصوف الانتخابي أو الانتقائي ، يعمد إلى اختيار أفكار الصوفيين ما يتلاءم مع المبادئ الانسانية.

هذه التوجهات أبرزت مفهوم التصوف عند جبران الذي كان له علاقة وثيقة بالتيار الرومانسي الذي انضوى تحته وآمن به.

-3 إن لجوء جبران ومعه أدباء الرابطة القلمية إلى الفكر الصوفي والإيمان ببعض أفكاره هو لعدة أسباب نوجزها في الآتي:

- الانتماء إلى المدرسة الرومانسية التي تنادي بخلق عوالم مثالية وتحطيم الماديات.
- محاولة التغلب على الشعور بالاغتراب ومآسي الغربة ، واللجوء إلى عالم الخيال والتمسك به.
- الاطلاع على الثقافات الشرقية ( البوذية ، الفارسية ) والفكر الصوفي الإسلامي.
- الغوص في تيار جديد لا عهد للأدب الحديث آنذاك به.

-4 الإيمان العميق بمبدأ الحرية والتحرر و انعتاق الروح عن الجسد والانفصال عنه .. وهو ما دفعه إلى الإيمان بمفهوم التقمص الذي برز في الكثير من كتاباته مثل : كتاب السابق ، قصة مضجع العروس ، قصة رماد الأجيال والنار الخالدة .

قائمة المصادر والمراجع :

- جبران خليل جبران ، المجموعة الكاملة لمؤلفات بالعربية ، تقديم ومراجعة وترتيب ميخائيل نعيمه ، دار صادر ، بيروت لبنان ، ط1 ، 2002م

- جبران خليل جبران ، الأرواح المتمردة ، المكتبة العلمية الجديدة ، بيروت لبنان ، دت ، دط .

- ميخائيل نعيمه ، البيادر ، مؤسسة نوفل ، بيروت لبنان ، دط ، 2012م .

- الزبيدي ، تاج العروس من جواهر القاموس ، المجلد التاسع ، 17 /18 ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، ط1 ، 2007م.

- علي الجرجاني ، التعريفات ، تحقيق : نصر الدين تونسي ، شركة القدس للتصدير ، القاهرة ، ط1 ، 2007م. - عبد الرحمن بن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، دار صادر ، بيروت لبنان ، ط1 ، 2000م .

- الشيخ عبد القادر عيسى ، حقائق عن التصوف ، دار العرفان ، حلب سوريا ، ط11 ، 2000م.

- أبو العلا عفيفي ، التصوف الثورة الروحية في الإسلام ، دار المعارف ، مصر ، ط1 ، 1963م .
- محمد مصطفى هدارة ، النزعة الصوفية في الشعر العربي الحديث ، مجلة فصول ، مجلد 1 ، عدد 4 ، 1981م.
- محمد علي كندي ، في لغة القصيدة الشعرية ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، ط1 ، 2010م .
- غسان خالد ، جبران الفيلسوف شخصية العبقري في منافذ خلاصها النقد الاجتماعي والبنية الفردوسية جدلية الإنسان والألوهة ، مؤسسة نوفل ، بيروت لبنان ، ط2 ، 1983م.
جبران خليل جبران ، مختارات ودراسات ، جمع سهيل بديع يشروئي ، تقديم : اصطفان فيلد ، دار المشرق ، بيروت لبنان ، 1970م.
- أحمد عبد الغفور عطار ، الديانات والعقائد في مختلف العصور ، مطبعة مكة المكرمة ، دط ، 1981م.
- ميخائيل نعيمه ، جبران خليل جبران حياته موته أدبه ، فنه ، مؤسسة نوفل ، بيروت لبنان ، ط9 ، 1981 م .
- بولس طوق ، شخصية جبران في أبعادها التكوينية والحياتية المكونات الأولية ، دار نوبلس ، بيروت لبنان ، دط ، 2000م .

**الهوامش:**

[1] - ميخائيل نعيمه ، البيادر ، مؤسسة نوفل ، بيروت لبنان ، دط ، 2012م ، ص ص 47، 75.

[2] - الزبيدي ، تاج العروس من جواهر القاموس ، المجلد التاسع ، 17 /18 ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، ط1 ، 2007م ، ص 24.

[3] - علي الجرجاني ، التعريفات ، تحقيق : نصر الدين تونسي ، شركة القدس للتصدير ، القاهرة ، ط1 ، 2007م ، ص ص 103 ، 104.

[4] - الشيخ عبد القادر عيسى ، حقائق عن التصوف ، دار العرفان ، حلب سوريا ، ط11 ، 2000م ، ص ص 8، 9 .

[5] - أبو العلا عفيفي ، التصوف الثورة الروحية في الإسلام ، دار المعارف ، مصر ، ط1 ، 1963م ، ص 35.

[6] - الشيخ عبد القادر عيسى ، حقائق عن التصوف ، ص 13.

[7] - عبد الرحمن بن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، دار صادر ، بيروت لبنان ، ط1 ، 2000م ، ص ص 356 ، 357 .

[8] - الشيخ عبد القادر عيسى ، حقائق عن التصوف ، ص 11.

[9] - محمد مصطفى هدارة ، النزعة الصوفية في الشعر العربي الحديث ، مجلة فصول ، مجلد 1 ، عدد 4 ، 1981م ، ص 107.

[10] - محمد علي كندي ، في لغة القصيدة الشعرية ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، ط1 ، 2010م ،ص 43.

[11] - غسان خالد ، جبران الفيلسوف شخصية العبقري في منافذ خلاصها النقد الاجتماعي والبنية الفردوسية جدلية الإنسان والألوهة ، مؤسسة نوفل ، بيروت لبنان ، ط2 ، 1983م ،ص 252.

[12] - جبران خليل جبران ، المجموعة الكاملة لمؤلفات بالعربية ، تقديم ومراجعة وترتيب ميخائيل نعيمه ، دار صادر ، بيروت لبنان ، ط1 ، 2002م ، ص 340.

[13] - المصدر نفسه ، ص 292.

[14] - المصدر نفسه ،ص 283.

[15] - ينظر : جبران خليل جبران ، مختارات ودراسات ، جمع سهيل بديع يشروئي ، تقديم : اصطفان فيلد ، دار المشرق ، بيروت لبنان ، 1970م ، ص ص 121، 122.

*يؤمن الدروز وهي جماعة اسلامية انشقت عن الاسماعلية ، بالتقمص ، أي انتقال الروح من جسد بشري إلى آخر ، فالنفس لديهم خالدة لا تموت والذي يموت هو قميصها ( الجسد ) الذي يصيبه البلى فتنتقل إلى قميص آخر والملاحظ في مذهبهم أنه صاف من رواسب الوثنية ، يركز على جوهر الإنسان وطموحه في نيل الكمال . ينظر : أحمد عبد الغفور عطار ، الديانات والعقائد في مختلف العصور ، مطبعة مكة المكرمة ، دط ، 1981م ، ص 103.

[16] - ينظر : ميخائيل نعيمه ، جبران خليل جبران حياته موته أدبه ، فنه ، مؤسسة نوفل ، بيروت لبنان ، ط9 ، 1981 م ، ص 92.

[17] - جبران خليل جبران ، المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران ، دار صادر ، بيروت لبنان ، دط ، 1949.

[18] - المصدر نفسه .

[19] - بولس طوق ، شخصية جبران في أبعادها التكوينية والحياتية المكونات الأولية ، دار نوبلس ، بيروت لبنان ، دط ، 2000م ، ص 143.

[20] - ينظر : المرجع نفسه ، ص 143.

[21] - جبران خليل جبران ، المجموعة الكاملة لمؤلفات بالعربية ، ص 197.

[22] - ميخائيل نعيمه ، جبران خليل جبران حياته موته أدبه ، فنه ، ص 92.

[23] - جبران خليل جبران ، المجموعة الكاملة لمؤلفات بالعربية ، ص 37.

[24] - جبران خليل جبران ، الأرواح المتمردة ، المكتبة العلمية الجديدة ، بيروت لبنان ، دت ، دط ، ص 47.

[25] - جبران خليل جبران ، المجموعة الكاملة لمؤلفات بالعربية ، ص 143.

[26] - المصدر نفسه ، ص 47.